



السحر والساحر

لو لم يسقط ضحايا امس، وبشكل غير مقبول في بلد يفترض ان ينعم بالسلم الاهلي، لكان يمكن تقويم هذا النهار المطلي الذي كثرت المراهنات عليه، وفق معايير "معركة الاحجام"، على ما تسمى هذه الحرب المستعرة في كواليس السلطة على خلفية مشروع تمديد ولاية رئيس الجمهورية الحالي او تجديدها. فمن نافل القول ان القضية الاجتماعية، على اهميتها واحقيتها، لا يمكن ان تختصر التعبئة النقابية ضد سياسة الحكومة، فيما النقابات استحالت فروعاً للسلطة او لبعضها او لما وراءها، وان احتمال اسقاط هذه الحكومة (وخصوصاً رئيسها) بسبب سياستها المالية والاقتصادية، مهما يكن مشروعاً، ليس قابلاً للتحقق ما لم تتضافر جهود وحسابات اخرى لا صلة لها بالصراع الطبقي، لكنها كلها متصلة بالصراعات داخل طبقة واحدة، هي الطبقة السياسية - المخابراتية الحاكمة. غير ان كل هذه الحسابات سقطت بدورها امس مع سقوط ضحايا بين المدنيين.

فالدّم الذي سال لا يسمح لاحد بأن يدعي الانتصار في معركة الاحجام الخفية. بل ان الدم الذي سال لا يمكن ان يفيد احداً في الفصول المقبلة لهذه المعركة، اللهم الا اذا جاء قرار من دمشق يلتم الامور ويفرض قراءة موجهة للذي حصل، وتواطأت اجنحة السلطة كلها، والاعلام معها، للقبول به والعمل وفقاً لما يمليه.

فمنذ شاعت انباء اطلاق النار على المتظاهرين في حي السلم، انتعشت النزعة المؤامراتية الكامنة في اذهان اللبنانيين. والحال ان كل ما قيل وكتب عشية يوم الاضراب، أوحى انه سيكون ٦ ايار آخر يمهد لذهاب رفيق الحريري، مثلما مهد ٦ ايار الاصلي لمجيئه الى رئاسة الحكومة عام ١٩٩٢. ولكن، مع سقوط الضحايا، لم يعد ممكناً مجاراة الفكر المؤامراتي. ليس فقط لانه يصعب تصور عقل مدبر يخطط لقتل المدنيين، بل لأن شريط الاحداث يوحي ان شيئاً ما اختل في الحسابات. فحتى لو اقررنا بأنه كانت هناك برمجة، فيبدو جلياً ان الاحداث خرجت عنها.

قد يكون مبكراً تحديد المسؤوليات بدقة. الا انه يمكن منذ الآن تعيين عدد من الاسباب التي سمحت بهذا الانزلاق الخطير. واول هذه الاسباب ان السلطة في لبنان ليست واحدة. فمن يتحمل مسؤولية السياسة والاقتصاد، وان لم يكن وحده من يقرر في هذا المجال، لا مسؤولية لديه في حفظ الامن (وهذا للمناسبة ما يصعب الامر على خصوم الرئيس الحريري اذ لا يستطيعون الادعاء ان ضحايا امس هم شهداء سياسته).

اما السبب الثاني، فهو ان المسؤولين عن الامن لا يملكون عقيدة فعالة في كيفية حفظ النظام العام. فما الذي يفسر ان يُرسل الجيش للتصدي لتظاهرة بدل تكليف الوحدات المختصة في قوى الامن الداخلي، مع العلم ان هذه تفتقر هي ايضاً الى عقيدة غير تكسير العظم؟

واذا كان ارسال الجيش مبنياً على قرار سياسي، فما الذي يفسر ان تلجأ عناصره الى اطلاق النار لتفريق المتظاهرين؟ وهل يكفي ان يتعرض الجيش لهجوم من بعض المتظاهرين حتى تُصوّب البنادق مباشرة الى صدورهم، كما ظهر في التقارير التلفزيونية؟ وحتى لو حصل اطلاق نار في المنطقة قبل دخول الجيش في المواجهة، أليست حشود المدنيين في بيئة مدنية حافزاً للتروي؟



قد يقول قائل ان الاحتقان الاجتماعي الذي دفع "الشارع" الى تحدي الجيش، نيابة عن السلطة، يقابله في صفوف العسكريين احتقان تجاه "شارع" افرط في الأونة الاخيرة في الاستقواء عليهم. ربما. ولا ريب في اي حال ان الوضع المميز، سياسياً لا اجتماعياً، للضاحية الجنوبية هو سبب ثالث للانحراف الدامي الحاصل. فالضاحية في عرف القيمين عليها وعرف السلطة على حد سواء، هي خارج الدولة كأنها جمهورية على حدة في عهدة "حزب الله". ولا يكفي ان تكون السلطة متناغمة في السياسة العليا مع هذا الحزب للقول انها تسوس الضاحية الجنوبية مثلما تسوس الاحياء الاخرى في بيروت الكبرى.

اكثر من ذلك، ان استثناء "حزب الله" (وحركة "امل") من قانون حل الميليشيات بحجة استمرار المقاومة، جعل من الضاحية ارضاً تغص بالاسلحة. ولعل في ذلك ما ينعكس لا شعورياً على طريقة تعامل القوى الامنية معها، في المرات القليلة التي تلجأ فيها السلطة الى هذه القوى في المنطقة. فليس مصادفة ان تكون الضاحية الجنوبية المنطقة الوحيدة التي يتم فيها التعامل مع التظاهرات باطلاق النار، مثلما حدث امس وقبل ذلك في ١٣ ايلول ١٩٩٣ (يوم توقيع اتفاق اوسلو في حديقة البيت الابيض).

يومئذ، كان "تلازم المسارين" في بداياته، ولعله يفسر ان تتمخض تلك الحادثة الدموية عن نقيض ما كان يمكن ان تؤدي اليه، اذ شاعت السياسة السورية ان يتكرس "الحكم الذاتي" للضاحية، مثلما شاعت في ما بعد الا تشوب العلاقات السياسية داخل الطائفة الشيعية اي شائبة، فمنعت المواجهة الانتخابية في الجنوب بين "حزب الله" وحركة "امل".

لكن مقتضيات التلازم تبدلت، بدليل ان ما كان ممنوعاً عام ١٩٩٦ وتكراراً عام ٢٠٠٠ صار محموداً في مناسبة الانتخابات البلدية الاخيرة، وكتب لـ "حزب الله" ان يسجل في هذه الانتخابات نجاحاً ملموساً، وان غير كامل، مما افضى الى تأزم العلاقات داخل الطائفة نفسها. وزاد من التأزم ان "حزب الله" اكد امتلاكه الضاحية الجنوبية بواسطة "تظاهرة الاكفان" التي شجعت المصادر الامنية المعنية باضعاف الرئيس نبيه بري، انها جمعت نصف مليون مشروع شهيد. وفي ذلك سبب رابع على الأرجح لخروج الامور عن السيطرة امس.

فامتلاك "حزب الله" للضاحية لا يعني انه وحده فيها، وان يكن قادراً في نهاية المطاف على التحكم بأمنها. ثم ان الجغرافيا السياسية لحي السلم تحديداً قابلة لترجمة تأزم العلاقات ضمن الطائفة الشيعية، ففيه حضور لانصار الشيخ صبحي الطفيلي ولحركة "امل"، الامر الذي قد يكون دفع المتظاهرين الى المزايمة على بعضهم البعض، وخصوصاً ان الخطاب الشعبي لـ "حزب الله" يشجع بدوره مناصريه (من غير المحازبين المنضبطين) على الدخول في مواجهة "اجتماعية" مع السلطة. تتعدد الاسباب اذاً، لكن النتيجة واحدة: لقد سالت دماء ما كان يفترض ان تزهر في بلد ينعم بالسلم الاهلي، وسقط ضحايا بين المواطنين لم يخطط احد لمصرعهم. فعساهم يتعظون اولئك الذين كان يخططون، في الداخل او في الخارج، لشيء آخر فخلقوا الظروف المؤاتية لهذه السقطة. عساهم يتنبهون اخيراً الى ان السياسة ليست سحراً يصنعه ساحر، وان ما فيها من السحر والالغاز المقنعة، ما يجعل السحر قابلاً للانقلاب على الساحر.

سمير قصير



| | | |
|---------------------|---------------------|--|
| Id-Reference | 04-Pr-000640 | |
| Media | (Support) | HC |
| Title | | السحر والساحر |
| Subtitle | | |
| Section | | |
| Language | | عربي |
| Source | | النهار |
| Page | | |
| Date | | ٢٠٠٤/٥/٢٨ 28/5/2004 |
| Author | | سمير قصير |
| Co-Author | | |
| Keywords | | |
| | Persons | رفيق حريري - نبيه بري - صبحي طفيلي |
| | Locations | لبنان - سوريا - دمشق - بيروت - ضاحية جنوبيية |
| | Dates | ١٣ أيلول ١٩٩٣ 06:05, 06:05:2004, 06:05:1992, 1996 |
| | Themes | لبنان - صراع سياسي - سوريا نظام - ٦ أيار - جيش - قوى أمن داخلي - حكم مخابراتي - حزب الله - حركة أمل - ضاحية جنوبيية - "تلازم مسارين" - احتقان شارع - معركة أحجام - تمديد ولاية رئيس جمهورية - سياسة سورية - طبقة سياسية مخابراتية حاكمة - رفيق حريري - مقاومة - تظاهرات - حكم ذاتي ضاحية - طائفة شيعية - انتخابات بلدية - تظاهرة أكفان - نبيه بري - صبحي طفيلي |
| Subject | | |